ملخص كتاب هؤلاء جلعوني انسانا للرائع هشام الذهبي

بقلم: ورقاء معله

يصف الذهبي الكتاب بأنه يوميات باحث نفسي مع مجموعة من الاطفال (مشردين وأيتام) في بغداد. طُبع الكتاب عام ٢٠١٥ من مؤسسة ثائر العصامي، أُعتمد كمنهج تدريسي في قسم اللغات والادآب في الولايات المتحدة الامريكية في جامعة الاباما في برمنغهام و هو عبارة عن قصة نجاح البيت العراقي الامن للابداع المسؤول عنه هشام الذهبي, كتاب سلس وبسيط من حيث المضمون والمفردات تبدأ الاحداث من ٢٠٠٣ من دخول القوات الامريكية للعراق

يقول هشام " منظر الاشخاص الاجانب (القوات الامريكية) وهم يمازحون هؤلاء الصغار والمراهقين ويلعبون معهم اكثر ما اثر في نفسي وجعلني انتفض على واقعي واتحدى نفسي لأكون ليس مثلهم بل افضل منهم كوني الاقرب لهؤلاء الاطفال انتماءاً. وبدأت رحلة الالف ميل بهذه الشرارة التي اوقدها عمل الاجانب مع اطفالنا".

في الحقيقة ان الكتاب يحوي كمية من المشاعر من الالم ومن الفرحة والامل, الالم من صور المعاناة التي يذكرها الكاتب لهؤلاء الاطفال والظلم الذي يعانون منه حيث يروي مجموعة من القصص المؤلمة، ولكنك بعدها تفرح عند قراءة تفاصيل ما انجزه هشام وزملاؤه بكل حب وبدون مقابل, ستشعر بأن الدنيا مازالت بخير .وستشعر بالامل عندما تعرف بأن هؤلاء الاطفال الذين كبروا في بيئة صعبة (اعتذر للمفردة) بيئة قذرة، قد تغيروا بمجرد أن شعروا بالحب واحسوا بالاهتمام.

يُعرف الذهبي طفل الشارع حسب وجهة نظره وقربه منهم : هو كل طفل لايعيش في كنف عائلتهِ ويتخذ من الشارع والطرقات والاماكن المهجورة مقراً له. وينقسم اطفال الشارع الى عدة انواع:

1- الطفل المنقطع نهائيا عن عائلته ويتخذ من الشارع مأوى له لعدة اسباب منها:
   أ- التفكك الاسري الناتج عن الطلاق أو وفاة احد الوالدين او كلاهما.
   ب- الفقر الشديد وعدم توفر ابسط مقومات الحياة مما يجعل عائلته تدفعه للشارع.
   ت- العمل المبكر الذي يساعد على اختلاط الطفل بنماذج من الاطفال المنحرفين يكونون سبب في انحراف الطفل.
   ث- الاضطرابات السياسية والاقتصادية التي تعرض لها البلد والمؤثرة على بيئة المجتمع.

ج- الممارسات الجنسية غير الشرعية التي ينتج عنها اطفال غير شرعيين لايعرفون نسبهم الحقيقي ويقذفون بهم الى الشارع بعد الانتهاء من لذة النشوة الجنسية.

2- الاطفال الذين يعملون طوال اليوم , معظمهم يعمل في جمع القناني الفارغة للمشروبات الغازية والكحولية او جمع القمامة (يتم تصنيف القمامة واستخراج اشياء كثيرة منها مثل لعب الاطفال والاحذية وبعض الاجهزة الكهربائية او الملابس القديمة وحتى علب الطعام المعلب) ويعود الطفل الى بيته في المساء حيث يقضي معظم الوقت خارج البيت بعيدا عن اي مراقبه من قبل العائلة فيفعل مايشاء.

3- الطفل المنقطع عن زيارة اهله لسببين :

أ- يعمل في جمع القمامة اذ يقضي ايام خارج البيت في محاولة لجمع اكبر كمية منها

ب- يترك الطفل الدار بسبب مشكلة معينة ويتعود على ذلك فكلما صادفته مشكله يترك الدار ويلجأ للشارع.

لهؤلاء الاطفال صفات كثيرة عانى منها الذهبي خلال رحلة تطويرهم وتغير حياتهم من هذه الصفات: الادمان (السكائر, استنشاق المذيبات مثل الثنر او استنشاق اللاصق السكوتين وكذلك الكحول), العدوانية, الشذوذ الجنسي بالاكراه او بأرادتهم, التسلط (البقاء للاقوى), الذكاء بسبب بقائهم في الشارع لسنين عديدة جعلتهم اذكياء ومحتالين من الدرجة الاولى.

<u>مسؤولية اطفال الشارع تقع على :</u>

1- الاسرة: فهي تعاني من مشاكل الفقر والتخلف والتفكك الاسري

2- المدرسة: (عدم وجود معلمين اكفاء يستطيعون ترغيب الطفل بالمدرسة, عدم وجود وسائل ترفيهية ,نشاطات, سفرات...الخ)

3- المجتمع: ينظر المجتمع نظرة سلبية نظرة تهميش واحتقار لهؤلاء الاطفال.

4- مؤسسات الدولة: التي تتحمل العبء الاكبر بأهمال العوائل الفقيرة وعدم توفير الخدمات الاساسية و الترفيهية

بدء الذهبي بالمرحلة الاولى من تأسيس البيت الامن للابداع بكيفية اقناع هؤلاء الاطفال الاذكياء المدمنين على البقاء في البيت الامن للابداع, وكيفية اقناعهم بأنه بيت وسيمارسون به كامل حريتهم وليس سجناً ولكن في البيت يجب الالتزام بالقوانين والنظافه والدراسة واحترام الاخرين... بدأ اولا

بجمع معلومات عن الاطفال واسرهم ووضعهم الاجتماعي, ثم تحليل هذه المعلومات وتحديد المشكله و طريقة حلها, قدم الذهبي برنامج العلاج النفسي للاطفال من خلال المواهب .. بالبحث عن المواهب الكامنة التي يمتلكها الاطفال وقد تكون الحل الامثل للتخلص من عقدهم النفسية مثل (الخجل ، الانطواء والعزلة ، العدوانية ، فقدان الثقة بالنفس ، النظرة الدونية للذات). عملنا هو مشاركة الاطفال بمختلف انواع النشاطات ومراقبة الطفل, الطفل الذي لايرغب بالنشاط يبدأ بالتسرب منه اما الطفل الراغب بالنشاط يتشوق لدخوله مرة اخرى وهنا يبدأ عملنا بالتركيز عليه وتشجيعه ومنحه مكافأت وتوفير كل المستلزمات الخاصة بالنشاط والتفاخر بما ينتجه, ولاحظ ان الطفل عندما يجد هوايتهُ ويستمتع بها يتخلص من جميع عقدهِ النفسية والمجتمعية وتزيد ثقتهِ بنفسهِ

هذه التجربة هي تجربة جديدة انفرد بها هشام الذهبي بالشرق الاوسط تعتمد على علم النفس لعلاج الاطفال والشباب .. حصل الكثير من ابناء هشام الذهبي على جوائز محلية وعالمية في الرياضة , التمثيل, الفنون التشكيلية كما شاركوا بمهرجانات وانشطة دولية جعلتهم ينظرون الى انفسهم نظرة مملوءة بالفخر والاعتزاز وكما اكمل الكثير منهم دراستهم في الجامعات وتم توظيفهم, وهناك عدد من الاطفال تم اعادة دمجهم مع عوائلهم بعد اخذ تعهد بعدم ترك الاطفال للشارع مرة اخرى.

بعدها يتحدث الذهبي في هذا الكتاب عن تجربته بدراسة علم النفس الذي قام بدراسته ليجد حلول لمشاكل الاطفال النفسية يقول " لقد وجدت نفسي مع ١٣٠ طالب وطالبة غير راغبون بهذا القسم الا انا، والمشكلة الاخرى هي ان اساتذة القسم يعلمون بذلك وبعضهم لم يحمل هذه المشكلة على محمل الجد، كونهم اساتذه بعلم النفس وعليهم اولاً ان يكونوا مهتمين بمصلحة الطلبة وأن يخلصوهم من الأحساس بالظلم الذي وقع عليهم، كونهم ينظرون لعلم النفس نظرة دونية سببها الثقافة التي نشئنا عليها, كما يقول بأن بعض الاساتذة في هذا القسم يحتاجون الى اساتذة في علم النفس يخلصونهم من العقد التي يحملونها ويعلمونهم كيف يتعاملون مع طلبة علم النفس.

علم النفس علم مغبون حقه مبخوسه فوائدة وللاسف الشديد علم لايعرف قيمته حتى العاملون بهِ، والدليل على ذلك انه حتى الان لم يدخل اي مجال من مجالات الحياة في الوقت الذي هو عصب الحياة ومهم لكل المجالات في باقي دول العالم.

مواقف جميلة يذكرها الذهبي خلال عمله:

1- في احد الايام طُرق الباب ف اذا به رجلاً يمسك بيده طفله وماان رأني حتى قال لي " استاذ متكلي شسويت انت؟ ابني كل ساعة يكَلي بابا شوكت تموت حتى اروح لدار الايتام؟"
2- احد الاطفال كان يهرب بأستمرار من الدار وكنت الاحقه دائما واعيده وكان في كل مره يقول لي " انت شتريد مني؟ ماكو غيري طفل مشرد؟ بغداد مليانة مشردين روح وجيب غيري" وانا كنت اقول له لن اجلب غيرك وسأظل الاحقك الا ان تستقر في الدار واترك انا العمل وفي كل مره يقول لي "يارب يبطلونك من الشغل واخلص منك" واخيرا بعد سنوات انا مدير الدار وهو مهندس حاسبات يعمل في امانة بغداد .

تجربة الذهبي تجربة عظيمة وناجحة تُستحق ان تُدرس, فهؤلاء الاطفال المهمشين مسوؤليتنا وان لم نهتم بهم فهم مشروع مدمن , مجرم و ربما قاتل مستقبلا, انصح بقراءة (هؤلاء جعلوني انساناً) لمعرفة تفاصيل اكثر عن ماواجهه الذهبي وماوصل اليه وكيف غير الذهبي حياة هذه الفئة 180 درجة وللذهبي كتاب ثاني يتحدث عن نفس الموضوع تقريبا بعنوان أطفال الشوارع ضحايا أم جناة ؟